محاضرات في :

**النظام السياسي في العراق المعاصر**

**م. د. محمد فيحان الدليمي                                                                  المحاضرة الثانية**

**معالم البيئة الاجتماعية – الاقتصادية للعراق اواخر العهد العثماني – نشوء المجتمع السياسي في العراق .**

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لم يكن العراقيون شعباً واحداً او جماعة سياسية واحدة , فقد كانت هناك الكثير من الاقليات العرقية والدينية في العراق , كالتركمان والاكراد والفرس والاشوريين والكلدانيين واليهود واليزيدين والصابئة واخرين , فضلاً عن ذلك العرب الذين كانوا يؤلفون اكثرية سكان العراق والذين كانوا يتشكلون إلى حدٍ بعيد من جملة المجتمعات المتمايزة والمختلفة فيما بينها والمنغلقة على الذات بالرغم من تمتعهم بسمات مشتركة .

**اولاً : معالم البيئة الاجتماعية .**

في الحديث عن الوضع الاجتماعي في العراق في العهد العثماني المتأخر , كانت هناك هوه كبيرة وواسعة تفصل المدن عن المناطق العشائرية , ففي عام 1867 كانت نسبة البدو الرحل في العراق 35% من مجموع السكان , اما سكان الريف فكانوا يشكلون نسبة 41% , واما سكان الحضر فلم يكونوا يؤلفون سوى 24% من السكان , وكان العرب الحضريون وعرب العشائر ينتمون في طبيعتهم الى عالميين يكادان يكونان منفصلين , سكان المدن الواقعة في عمق المناطق العشائرية او رجال العشائر الذين يقطنون قرب المدن , وقد كان هذا التمايز هو اقتصادي بالدرجة الاولى , لذلك فأن العلاقة بين المدن والمناطق العشائرية لم تكن نشيطة وكانت ضعيفة إلى حدٍ ما .

لقد كان هناك تباعد اجتماعي ونفسي بين العرب الحضريين والعرب العشائريين , فقد كان يختلف بعضهم عن بعض بطرق كثيرة , فقد خضعت حياة العرب الحضريين بشكلٍ ما إلى القوانين الاسلامية والعثمانية , واما حياة العرب العشائريين فكانت تخضع إلى العادات والتقاليد العشائرية القديمة المصبوغة بصبغة اسلامية , كذلك فقد كان بعض العرب الحضريين خصوصاً شريحة المتعلمين منهم يخضعون لتأثير الثقافة التركية او الثقافة الفارسية في المدن الشيعية , اما العرب العشائريون فقد نجوا من تأثير هذه التأثيرات كلياً , وعلاوةً على ذلك , فقد كانت المدن الحضرية ايضاً تعيش الانقسامات المجتمعية سواء كانت بسبب العامل الاقتصادي او الاختلاف الديني حتى بين المسلمين انفسهم بسبب الانقسام المذهبي الحاصل إلى سنة وشيعة , فقد كان هذا الانقسام هو الاكثر حدةً وكان نادراً ما يكون هناك اختلاطاً اجتماعياً , بل حتى في المدن المختلطة , كانوا يعيشون في احياء منفصلة حيث لكل منهم حياته , وهو ما قاد بالتالي إلى الانقسام الطبقي والذي كان يعود في اسبابه إلى الوضع الاجتماعي والاقتصادي .

كذلك فان الانشقاقات الحضرية في المدن قد اتخذت طابعاً اكثر حدةً عندما وجدت لنفسها تعبيراً اخر في ظاهرة الانقسام هي ظاهرة (المحلة) او الحي , بحيث ان هذه المجموعات التي كانت تسكن المدن الحضرية والتي هي من اصول عرقية (اثنية) او عشائرية مختلفة او عقائد دينية او طوائف او طبقات مختلفة كانت تميل إلى العيش في "محلات" منفصلة , فعلى سبيل المثال كانت الضفة الشرقية لبغداد (الرصافة اليوم) يعيش فيها الشيعة في منطقة (الدهانة وصبابيغ الال والقشل وسوق العطاريين واحياء اخرى ) , وعاش معظم اليهود في التوراة وتحت التكية وابو سيفين وسوق حنون , وعاش المسيحيون في عقد النصارى وراس القرية , وكان السنة يشغلون جزءاً من احياء القسم الشرقي من المدينة , ولكن هذا الجزء كان مقسماً على اسس اخرى , فكان الميدان موطناً للعسكريين الاتراك , والحيدر خانه موطناً للعائلات الارستقراطية وكبار المسؤولين , وكانت منطقة دكان شناوة للموظفين الادنى مرتبة , والقسم الداخلي من باب الشيخ موطناً للحرفيين , وكانت الاطراف الخارجية من باب الشيخ موطناً لصغار الكسبة , اما الكاظمية الي تظم ضريحي الاماميين الشيعيين السابع والتاسع لم تكن مسكونة الا من الشيعة , وكان فيها تمركز كبير للصفويين الايرانيين , في حين ان الأعظمية التي فيها ضريح ابو حنيفة النعمان فقد كانت تقتصر في سكانها على السنة .

وبالنظر إلى الولاءات المختلفة في العراق ما قبل الحرب العالمية الاولى كما لو كانت هذه الولاءات والانقسامات سلبية فقط في الواقع , فأنها من جهةٍ اخرى كانت تفي بحاجة ايجابية , فالعشائر والمحلات والاصناف كانت تشكل تعبيراً جزئياً عن النزعة الفطرية للحصول على الحماية من خلال الوحدة , وهي حماية لم تكن الدولة العثمانية تؤمنها في ذلك الوقت نتيجةً لضعفها .

**ثانياً : معالم البيئة الاقتصادية .**

اما في الحديث عن الجانب الاقتصادي في العراق للمدة المحددة وهي العهد العثماني المتأخر , فقد شهد الكثير من المشاكل في ذلك الوقت , الا بعض الاصلاحات في عهد الوالي مدحت باشا , وما بعد ذلك كانت هناك مباشرةً لبعض مشاريع الري مثل انشاء السدود والخزانات والنواظم , على ان ذلك لم يكن بالقدر المطلوب الذي كان من الممكن ان يعالج المشكلة الدائمة التي كانت تعاني منها بعض المدن العراقية وهي مشكلة الفيضانات لا سيما مدينة بغداد , وقد كانت هذه الفيضانات تؤدي إلى تدمير المحاصيل الزراعية , وبالتالي يعود الضرر على الفلاحين ويسبب في تراجع مستواهم الاقتصادي .

وعلى الرغم من ان نظام الطابو الذي استحدثه مدحت باشا كان ذات تأثير على الحياة الاقتصادية واسهم برفع المستوى المعاشي للمجتمع , فقد اصبحت نسبة السكان البدو 25% من مجموع السكان , عام 1890 , وارتفعت نسبة سكان الريف لتصبح في العام المذكور 50% من نسبة السكان , وكذلك ارتفعت نسبة الحضر لتصبح 25% من السكان , ولكن هذا كان لطبقات محددة من المجتمع العراقي , اذ كان اصحاب النفوذ والملاك وشيوخ العشائر هم المستفيدين من هذا النظام وهو ما عزز ارتباط هؤلاء بالدولة العثمانية وادى إلى زيادة ثرائهم على حساب الفلاحين البسطاء .وبرغم المحاولة التي قام بها مدحت باشا والتي كانت في ذلك الوقت السياسة الوحيدة القادرة على حل المشكلة العشائرية في العراق الا ان هذه السياسة لم تقضِ على البناء العشائري ، حيث ظلت البقايا العشائرية قوية واستطاعت ان تمنع أوسع الجماهير الفلاحية من أن ترى رؤساء العشائر الذين تحولوا إلى إقطاعيين كبار وأعداء طبقيين لهم , كما أن محاولة القضاء على ملكية العشائر الجماعية للأرض ويجعل الأرض المشاعية ملكاً للدولة ، ومنحها لشيوخ العشائر , جعلها بمثابة مناصب وراثية تعهد إليهم بموافقة السلطة الحاكمة والذي سبب بولادة عوائل إقطاعية كانت تمتلك أصقاعاً واسعة من الأراضي ، لاقت تلك العوائل مقاومة الجماهير الواسعة من الفلاحين المعدمين . وكان من نتيجة سيادة النظام الإقطاعي في العراق وإفرازاته على أبناء الريف من الفلاحين ، انه أدى إلى انخفاض الإنتاج الحرفي في المدينة العراقية إلى حد كبير مما أدى إلى تخريبها .

وكان المجال التجاري قد شهد هو الاخر تحسناً طفيفاً بسبب وجود بعض العوامل وعلى الصعيدين الداخلي والخارجي , فعلى الصعيد الخارجي , كان لفتح قناة السويس عام 1869 في مصر وكذلك الثورة الصناعية التي شهدتها اوروبا في نهاية القرن التاسع عشر انتعاش التجارة في العراق , كذلك فقد كان ادخال البواخر والمواصلات النهرية اكبر الاثر في انتعاش التجارة فوصلت اول باخرتين إلى العراق عام 1857 , واضاف اليها نامق باشا ثلاث سفن اخرى عام 1867 , وكان لتأسيس شركة لنج للملاحة في الفرات ودجلة عام 1861 في لندن اثر واضح في نمو التجارة في العراق , اضف إلى ذلك , تأسيس البنوك لاسيما بنك الشاهي الذي تأسس عام 1890 في العراق اكبر الاثر في تحريك عجلة التجارة داخل العراق . غير ان هذا كان بنسب محدودة , اذ إن الهيمنة العثمانية على العراق عرقلت تطور التجارة والحرف الصناعية بسبب الثروات الضخمة التي كانت تسلبها من العراق على شكل ضرائب مختلفة ، بالإضافة إلى الآثار السيئة للنظام الإقطاعي السائد في البلاد .

لقد كانت المؤسسات التي تطورت من خلال إطار الإنتاج الحرفي قليلة جداً وضعيفة , على ذلك فإن التطور الوحيد الجانب للعلاقات الرأسمالية في الاقتصاد العراقي قد جاء مع تسرب الرأسمال الأجنبي إلى العراق والذي تكيف لتلبية احتياجات مختلف فروع الاقتصاد في تلك الفترة التي كان فيها العراق تحت سيطرة الحكم العثماني ولم يكن العمال الذين يزاولون الأعمال الموسمية كعتالين وعمال بناء وغيرها قد يتجاوزوا عشرات الآلاف من العمال وكانت الأجور منخفضة جداً ، وكان أولئك العمال الموسميون الوقتيون يؤلفون الجانب الأكبر من الطبقة العاملة الجديدة التي ما تزال تمر بمراحل التكوين الأولي ، وبما أن تلك الطبقة الجديدة الموسمية كانت مكونة من الفلاحين المهاجرين من الريف فقد امتازت تلك الطبقة من العمال بالازدواجية لعدم ارتباطهم النهائي بالآلة , وبطبيعة الحال أثر ذلك بشكل مباشر على تكوين ونمو وعي العمال الطبقي والسياسي مما جعل تلك الطبقة غير مؤهلة بالقيام بأي دور سياسي في الساحة السياسية العراقية آنذاك .

إن الظروف والأوضاع التي كانت سائدة ، لم تساعد على وجود حركة اقتصادية لتنشيط السوق المحلية بسبب انقسام سكان العراق إلى مجتمعات منعزلة ومتفرقة وفقدان شروط الوحدة الوطنية بسبب النزعات الطائفية والقبلية مما جعل تلك السلبيات تنعكس على مجرى الحياة السياسية وأعاقت ظهور الفوارق الطبقية في المجتمع كما أن البورجوازية الكبيرة لم تكن تتعارض مع الإقطاعيين وإنما تواطأت واتفقت معها مما أدى إلى استغلالها لمصلحة العثمانيين والمستعمرين , لاسيما وان الازمة المالية للسلطنة العثمانية كانت قد بدأت بالظهور اواخر القرن التاسع عشر وهو ما دفع السلاطين العثمانيين إلى اتخاذ تدابير اخرى يكون لها واقع افضل لاستمرار تدفق الايرادات القادمة من الولايات للحفاظ على سلامة الامبراطورية وتأمين حاجة الدين العام من خلال تعزيز الروابط مع قادة القبائل البارزين واسر الاشراف الرئيسة وحتى المشايخ الصوفيين وصار بمكان هؤلاء اللجوء إلى اسطنبول لاستمداد الدعم وهو ما ساعد بدخولهم إلى الحياة السياسية .

**ثالثاً : نشوء المجتمع السياسي في العراق .**

كان الجانب السياسي في العهد العثماني المتأخر قد سمح بولادة مجموعات متنوعة في الولايات الثلاث (بغداد , الموصل , البصرة) هدفها تحقيق مصلحة او اصلاح سياسي , وقد عملت تلك المجموعات على اقامة علاقات وثيقة مع اشخاص من ولايات مجاورة يتبعون النهج الفكري نفسه , وغالباً ما كان يتم ذلك في المؤسسات التعليمية في اسطنبول , وهو ما دفع البعض إلى ادراك ما تملكه بعض الولايات من قواسم مشتركة واظهار القيمة الاستراتيجية للتعاون في النشاط السياسي , وقد كان من ابرز من ظهر من تلك المجموعات نقيب الاشراف في بغداد عبد الرحمن الكيلاني او نقيب الاشراف في البصرة وابنه سيد طالب , فضلاً عن شيوخ قبائل كردية امثال الشيخ سعيد البرزنجي , وقد عزز هؤلاء علاقاتهم بالسلطان في اسطنبول ليكون لهم دوراً بارزاً في الحياة السياسية فيما بعد .

وبعد ثورة تركيا الفتاة عام 1908 التي اجبرت السلطان على اعادة العمل بالدستور , ظهرت إلى العلن الكثير من التيارات السياسية التي كانت مقموعة في الولايات الثلاث , واصبحت تعبر عن رايها بصورة علنية , وكان تكاثر الاندية والمجموعات الجمعيات بعد عام 1908 , فضلاً عن الظهور المكثف للجرائد شاهداً على انخراط اعداد متعاظمة من الناس في الموصل وبغداد والبصرة في العمل السياسي , وقد كان لحضور ومشاركة شباب من وادي الرافدين امثال توفيق السويدي وناجي شوكت وحمدي الباجه جي وحكمت سليمان في الجدالات الدائرة في اسطنبول حول الدستورية والليبرالية واللامركزية والعلمانية والتداول الشائع للإصلاح العثماني الهادف إلى تقوية الدولة عبر التقنيات الادارية الحديثة وتطوير القدرة العسكرية والاقتصادية والذي ظهر على نحو واسع في افكارهم , ما هي الا شاهد على انخراط شباب وادي الرافدين بالحياة السياسية داخل الدولة العثمانية .

وما ان جاءت انتخابات البرلمان التركي عام 1908 حتى استطاع السيد طالب النقيب الفوز بعضوية البرلمان التركي , ويعد هذا العمل بداية لنشاط سياسي عراقي داخل البرلمان التركي والذي سرعان ما بانت معالمه , اذ اصبح من المعارضين لسياسة حزب الاتحاد والترقي , وقد اسس عام 1913 جمعية اصلاح البصرة التي طالبت بحكم ذاتي لولاية البصرة , وكان ذلك عقب اجتماع ترأسه هو وحضره شيوخ المحمرة والكويت , وتم الاتفاق على المطالبة بالحكم الذاتي بل ولاستقلال العراق ايضاً .

ومن مظاهر الحياة السياسية الاخرى والتي ساعدت في نشوء الحركة السياسية في العراق كانت الصحف والمجلات التي تصدر في العراق , فقبل عام 1908 لم تكن تصدر في العراق غير ثلاث صحف , اما بعد هذا التاريخ فقد صدرت ما يقارب 70 صحيفة أي بعد اعلان الدستور العثماني , وكانت هذه الصحف تجري مناقشات صريحة وجدية لمواضيع شتى , كان الموضوع السياسي احد اهم وابرز تلك الموضوعات .

وكان لتأسيس جمعية العهد دوراً بارزاً في الحياة السياسية في العراق , فقد تأسست عام 1913 في الاستانه على يد عزيز علي المصري وبعض الضباط العرب الاخرين وكان معظمهم من العراقيين , وقد نشطت هذه الجمعية في المطالبة بالحقوق العربية , وكان برنامج الجمعية يتلخص بنقاط ثلاث رئيسية هامة كانت قائمة بين الضباط العراقيين في المدة التي سبقت الحرب العالمية الاولى , كان اولها النزعة القومية العربية وعواطفهم الاسلامية ومناوأتهم النفوذ الغربي , وكان الضباط العراقيون يشكلون اساس هذه الجمعية , فلقد قال عنها لورنس بان كل سبعة من عشرة ضباط مولودين في بلاد ما بين النهرين ينتمون إلى جماعة العهد .

ان المرحلة الاولى لتأليف الاحزاب والجمعيات السياسية في العراق ما بين عام 1908-1912 كانت تتميز بكونها امتدادات فعلية لمنظمات سياسية قائمة في تركيا نفسها , فلقد افتتحت جمعية الاتحاد والترقي فرع لها في بغداد عام 1908 وكانت تضم في عضويتها قلة من العراقيين , وفي عام 1909 افتتح حزب الحرية والائتلاف فرع له في بغداد واصبح له فرع اخر في البصرة عام 1911 .

ان حركة الوعي السياسي في بغداد والبصرة كانت قوية على عكس الولاية الثالثة الموصل , التي لم تكن تحمل وعياً قومياً عربياً خلال الوجود العثماني , ويمكن ان يجمل سبب ذلك بثلاث نفاط هي :

1 – كان القرب الجغرافي للموصل من تركيا عاملاً في اعاقة نمو الحركة القومية خلال العهد العثماني

2- كان العرب يشكلون النسبة الاعظم من سكان ولاية الموصل , لكن لم يكن التركيب القومي لولاية الموصل عربياً كاسحاً كما كان الامر بالنسبة للبصرة وبغداد , على ان ذلك لم يمنع قيام علاقات تأخي ومحبة بين طوائف المجتمع المختلفة في الموصل .

3- ان سياسة المركزية التركية التي كانت تستدعي تحطيم الاتحادات العشائرية والغاء حكم العوائل والتي نفذت في عهد مدحت باشا 1869-1872 , كانت في الموصل قد نفذت قبل هذا التاريخ أي حوالي عام 1833 , حيث اصبحت الموصل خاضعة تماماً للسيطرة التركية وكان بسبب التواجد المصري في سوريا والذي دفع الاتراك إلى احكام سيطرتهم على الموصل .

وبرغم ذلك , لم تخلوا الموصل من نشاط سياسي في تلك المدة , اذ استطاع سليمان فيضي وبتكليف من طالب النقيب تكوين جمعية قومية سرية مكونه من ياسين الهاشمي ومولود مخلص وعلي جودت وعبد الله الدليمي (من العسكرين) وسعيد الحاج ثابت وابراهيم عطار باشي (من التجار) وداود الجلبي (طبيب) , الا ان هذه الجمعية لم يكن لها نشاط ملحوظ , وفي عام 1914 تشكلت جمعية اخرى من المدنيين العرب وكان اسمها جمعية (العلم) السرية وتألفت من ثابت عبد النور ومكي الشربتي ومحمد رؤوف الغلامي ورؤوف الشهواني , وبقيت هذه الجمعية حتى عام 1919 حينما اندمجت بالعهد .

وبرغم من ان هذا النشاط السياسي كان في بداياته بسبب ان الدولة العثمانية لم تكن تسمح بمثل هكذا انشطه سياسية , الا ان ذلك لم يمنع من تطور الحياة السياسية في العراق لاسيما بعد اعادة العمل بالدستور العثماني عام 1908 وهو ما فسح للكثير من الشخصيات العراقية إلى الدخول في العمل السياسي وهو ما فتح افاقاً جديدة للساسة العراقيين ليكون لهم دوراً بارزاً في الحياة السياسية فيما بعد .